

خطاب المحبة في المتن التراثية

The Discourse of Love in the Traditional Texts

(الزهرة وطوق الحمامة انموذجا)

(The flower and the Dove Collar as a model)

د. سؤدد جسام حمادي

Dr. Soedod Jassam Hammadi

وزارة التربية / معهد الفنون الجميلة المسائي / الرصافة ١

Ministry of Education / Evening Fine Arts Institute / Rusafa 1

الملخص

تكمّن أهمية البحث في بيان التفاوت المجتمعي والوقوف على نظرة المجتمع المجسدة بالأدب للعلاقات الإنسانية بتباين المجتمعات وتفاوتها الزمني ورصد هذه العلاقات ودراسة نمط البناء الفكري للمجتمع عن طريق هذه القصص وترسيخ أهمية خطاب المحبة وتعزيزه بين أبناء المجتمع، والتأكيد على دور الأدب في تعزيز العلاقات الإنسانية وبيان جوانبها وتداخلها، والتعبير عنها لدى شخصيات المجتمع وعلمائها ومثقفها، ومن خلال كل ذلك نحاول دراسة المشكلة الخاصة ببحثنا.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الأدبي، النشر العربي، الكتب التراثية، العصر العباسي.

Abstract

The importance of the research lies in the statement of societal inequality, standing on the society's view embodied in literature of human relations in the difference of societies and their temporal disparity, monitoring these relationships, studying the pattern of intellectual construction of society through these stories, consolidating the importance of the discourse of love and strengthening it among the members of society, and emphasizing the role of literature in strengthening human relations and explaining their aspects. And its overlap, and its expression in the personalities of society, its scholars and intellectuals, and through all of this we try to study the problem of our research.

key words: Literary discourse, Arabic prose, heritage books, the Abbasid era.

المقدمة

يتناول البحث دراسة جانب من جوانب الادب العربي متمثلاً بالنثر في العصور العباسية دراسة موضوعية والكشف عن الانساق المهيمنة اجتماعياً عن طريق سرديات العشاق والمحبين المثبتة في المتون التراثية مثل كتابي "الزهرة لابن داود الظاهري ٢٩٧هـ" و"طوق الحمامة لابن حزم ٤٥٦هـ".

يتناول المبحث الاول دراسة موضوعية للكتابين من خلال استقراء أبواب كل كتاب وعنواناته ومضموناته للوقوف على ما التقى به كل كتاب مع الآخر، وما اختلف عنه من جانب آخر، في حين يتضمن المبحث الثاني دراسة للكتابين ونصوصهما، ودراسة الأنساق المهيمنة في المجتمع آنذاك عن طريق سرديات العشاق والمحبين في هذه الكتب.

التمهيد

المحور الأول : الحب في اللغة والاصطلاح:

الحب نقيض البغض، والحب الوداد أو المحبة، وحبّه يحبّه، بالكسر، فهو محبوب، والمحبة أيضاً اسم للحب، والحبّ بالكسر: المحبوب، والأنثى: حُبّة وجمع الحب أحباب، وجَبَّانٌ، وحُبُوبٌ، وحِيبَةٌ، وحُبٌّ^(١).

والحب في الاصطلاح "ميل الطبع في الشيء الملذ، فإن تأكد الميل وقوي يسمى عشقاً"^(٢)، والمحبة هي الميل للشيء السار، والحب عند الفلاسفة هو "ميل إلى الأشخاص أو الأشياء العزيزة أو الجذابة أو النافعة، ووعاء الماء كالزير والجرة"^(٣)، وقال الراغب: "المحبة: ميل النفس إلى ما تراه وتظنه خيراً"^(٤)، وقال الهروي: "المحبة: تعلق القلب بين الهمة والأنس، في البذل والمنع والإفراد" والمحبة تدل على الزوم والثبات، ونقول: أحببتُ الشيء فأنا محبٌّ وهو محبٌّ^(٥).

-
- (١) لسان العرب، مادة حب، ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، ط١، بيروت، دار صادر: ٢٨٩/٥. وينظر: تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي ت٣٧٠هـ، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت الطبعة، ٢٠٠١م: ٨/٤.
- (٢) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ-١٩٨٨م: ٣٩٨/١.
- (٣) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، د. ط، دار الدعوة، د. ت: ١٠١/١.
- (٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الاصفهاني، تح أبو اليزيد أبو زيد العجمي، د. ط، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٧م: ٢٥٦.
- (٥) ينظر: المعجم الوسيط: ١٥١. وينظر: تهذيب اللغة، أبو منصور الهروي: ٨/٤. وينظر: منازل السائرين، عبد الله الأنصاري الهروي، د. ط، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م: ٨٨.

وفي كتابه "فقه اللغة" تناول الثعالبي مراتب الحب والعشق فصنفها إلى أنواع هي الهوى، والعلاقة، والحب الملازم للقلب، والكلف، والعشق، والشغف، واللوعة، والجوى، والتتيم، والتبّل، والتدليه، والهيوم^(١).

ومن كل هذه التعريفات والمصطلحات نخلص إلى أنّ الحبّ والمحبة هو ميل من النفس الانسانية تجاه أشخاص محددين أو شيء ما مرغوب به، ومرتبط فيه، وللحب أشكال وأحوال عديدة تمثلت بالكثير من القصص والحكايات التي اختزنتها كتب التراث العربي والغربي ونقلت لنا الكثير منها بصورٍ مختلفة وظروف معينة.

الحب والمحبة في القرآن:

وردت لفظة الحب في القرآن الكريم في مواضع مختلفة لاسيما في سورتي البقرة وآل عمران وقد يعود ذلك لطول السورتين وتناولهما الكثير من الموضوعات التي تدور حول أمور عديدة ومنها هذا الموضوع، كما وردت ألفاظ أخرى ومعانٍ مرادفة للفظ الحب في هاتين السورتين وسور أخرى من القرآن الكريم مثل لفظة الود والإيثار والألفة والرحمة^(٢). يقول الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ ﴿آل عمران: ١٠٣﴾.

والألف بين القلوب هو من الحب والمودة، وهو من عطايا الله سبحانه وتعالى وقدرته التي تفوق قدرة البشر ففي قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿الأنفال: ٦٣﴾، نلاحظ نسبة هذا العمل لله وحده فهذه قدرة الهية تفوق طاقة البشر وقدراتهم فهي بيد الله لا بيدهم.

(١) ينظر: فقه اللغة وإسرار العربية، الأمام أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، ضبط وتعليق وتقديم: د. ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط ٢، ٢٠٠٠م.

(٢) ينظر: سورة مريم: الآية ٩٦، وسورة الحشر: ٩.

ونلاحظ كثرة ارتباط مفردة الحب والمحبة بالله سبحانه وتعالى، يقول الله عز وجل في سورة البقرة ﴿مَنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ ﴿البقرة: ١٦٥﴾، وفي مواضع أخرى من السور تتضمن آيات موضوعه حب الله للمؤمنين بأصناف معينة كحبه للتوايين، وحبه للمتطهرين، وللمتقين، وللمحسنين، يقول: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿ال عمران: ٧٦﴾.

ويقول: ﴿وَالْكَافِرِينَ الْغِيَظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿ال عمران: ١٣٤﴾، وبالمقابل يذكر القرآن موقف كل هؤلاء المؤمنين من محبة الله سبحانه وتعالى لهم فيقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ ﴿البقرة: ١٦٥﴾.

فضلاً عن آيات أخرى تناولت الحب المتبادل بين الله وعباده ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ﴿ال عمران: ٣١﴾.

في حين كانت هناك مواضع أخرى اقترنت فيها مفردة الحب بلا النافية عندما يريد الله سبحانه وتعالى أن ينفي حبه لنفر آخر من الناس كالكفار والظالمين والمعتدين... يقول: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ ﴿البقرة: ٢٧٦﴾.

ويقول: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿ال عمران: ٥٧﴾،

ويقول: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿البقرة: ١٩٠﴾.

فضلاً عن سور أخرى وآيات قرآنية كثيرة تناولت كل هذه المعاني يمكن رصدها في كتابنا العزيز. ومن كل ذلك نستنتج أن الحب في أغلب حالاته التي جاءت في القرآن الكريم قد جاءت مرتبطة بحب العباد لله سبحانه وتعالى، وحب الله لهم.

وفي مواضع أخرى ارتبط ذلك بالحب الابوي بين الاب وابنائهم أو بين الأم وأولادها^(١)، وبكل علاقة لها سمة إنسانية تربط بين المسلمين على اختلاف تقاربهم أو تعاملاتهم؛ لذا نلاحظ أن الحب في ديننا الحنيف قد ارتبط بالأخلاق الحميدة والصفات الجيدة، وأي شيء غير ذلك فهو مرفوض فالحب في الله ولله وفي سبيل الله.

أما العلاقة التي تربط الرجل بالمرأة فقد جاءت في القرآن الكريم ضمن حدود معينة، وفي ألفاظ أخرى ربما اختزلتها الآية القرآنية التي تقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، فالمودة والرحمة هما السمات التي وسم بها الله سبحانه وتعالى طبيعة العلاقة التي تجمع بين الرجل والمرأة والتوادر والتراحم فيما بينهما هما اللذان يبارك الله لهما فيها.

وكثير من أشكال الحب أشار إليها القرآن الكريم في أكثر من موضع^(٢)، فبينما يترجم الشعر والنثر تلك الأشكال بالحب وكالحب من أول نظرة، أو ادامة النظر إلى الحبيب، أو المراودة، وغير ذلك من أشكال الحب وأساليبه وتداعياته، نجد القرآن الكريم يرفض ذلك ويدينه لما له من عواقب وخيمة لو استمر، إذ يقول: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠-٣١]. إذ يحرص الدين الإسلامي على ضرورة ضبط النفس في مثل تلك الأمور لتجنب العواقب الوخيمة التي قد يتعرض لها الإنسان وتُصاب بها النفس الإنسانية لو تمادت في هذا الأمر وفي ذلك الطريق.

(١) ينظر: سورة يوسف "٨"، وينظر: سورة القصص "١٠".

(٢) ينظر: سورة يوسف الآيات "٢٣" و"٣٠".

..... خطاب المحبة في المتون التراثية

وفي مواضع أخرى يصف القرآن الكريم أحوال الخليل مع خليله فيربطها بالعداوة والبغض بدلاً من الحب والمحبة اللفظين الأخف وطأة يقول: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿الزخرف: ٦٧﴾.

في إشارة منه إلى أن الاخلاء اجتمعوا على حب في غير الذات الالهية لينقلب ذلك بعد حين إلى عداوة لأنَّ حبهم واجتماعهم كان لغرض معصية الله بخلاف المتقين الذين يجتمعون في حب الله وطاعته وتجنب ما يبغضه. وفي موضع آخر من القرآن الكريم ترد مفردة الخليل في سياقٍ مشابه، يقول عز وجل على لسان الظالم: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ ﴿الفرقان: ٢٨﴾.

واختلف المفسرون في تحديد الخليل سواء في شخص محدد أم هو الشيطان نفسه، وفي كل الأحوال فال خليل هنا هو غيره سبحانه وتعالى ومادام الحب والخلة لغير الله فهما حب وخلة دنيوية مصيرها الزوال والندم والتحسر لما فرط به الظالم بجنب الله

ولا يمنع ذلك من ورود بعض الالفاظ في سياقات أخرى من القرآن الكريم كلفظة المودة ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ ﴿العنكبوت: ٢٥﴾.

إذ وردت اللفظة في وصف مودة الكفار للأوثان وحبهم لها وتعلقهم فيها بخلاف الله سبحانه وتعالى خالقهم ولأنَّ حبهم كان لغير الله واجتمع على الكفر في حياتهم الدنيا انقلب في الآخرة الى بغض وكره وعداوة ليكون مصيرهم بعد ذلك الى النار دون ناصر.

المحور الثاني: الحب في السياق العربي:

الحب ذلك الشعور الذي يلامس شغاف القلب، وتلك العاطفة الانسانية السامية التي تختلج النفس دون إرادة منها تجاه شخص محدد أو موقف معين من المواقف الحياتية التي تمر بها النفس البشرية أثناء مسيرة حياتها أو أزاء احتكاكها مع الآخر، فأينما وجدت الحياة وجد الحب، وتزامن وجود هذه العاطفة مع بدء الخليقة، منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم وحواء وجمعهما برباط مقدس يكتنفه الحب والمودة والرحمة.

ولم تخلُ كتب الأدب والتراث من الحديث عن هذا الموضوع^(١)، ودراسة حالات الحب مثل ميل النفس لما يلائم طباعها وتستحسنه، وما يختلجها من فرح وسرور وغبطة أزاء رؤية المعشوق، وغير ذلك من أشكال الحب المتمثلة بإدامة النظر ومعاودته، وطلب النفس للمحسوب والتعلق به ومكابدة العشق، وانشغال الفكر به، وانشغالها به حاضرًا أم غائبًا، فضلاً عما يصيبها جراء ذلك.

وعُرف الحب منذ العصر الجاهلي، وصورت لنا قصائده وقصصه وحكاياته الكثير من حالاته وأشكاله، فقد نبغ في ذلك العصر الكثير من الشعراء الذين جسدوا هذه العاطفة في مقطوعاتهم الشعرية وقصائدهم، ونقلت لنا الكثير من المتون التراثية قصص ذلك العصر وحكاياته، مثلما نقلت ذلك عن بقية العصور التي تلتها وأشعار شعرائه، وقد عُرف شعراء بعينهم بموضوعة الحب، بل أن هذه المتون التراثية قد تناولت بالأخص هذه العاطفة السامية، إذ أُلُفَت فيما بعد المئات من الكتب التي ركزت على ثيمة الحب وأشكاله وأحواله وشخصه فانبثقت عن تلك العصور الكثير منها في الحب والعشق والوله ككتابي الزهرة لابن داود الظاهري وطوق الحمامة لابن حزم اللذين نحن بصدد دراستهما في هذا الموضع.

(١) للمزيد ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب المؤلف: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (ت ٧٣٣هـ)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ.

..... خطاب المحبة في المتون التراثية

ومن الكتب الأخرى التي تناولت هذا الجانب كتاب روضة المحبين لابن القيم الجوزية الذي فصل فيه الحديث عن الحب وأسماء المحبين، وكتاب تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق لداود الانطاكي، كما قسم الثعالبي في كتابه فقه اللغة الحب إلى مراتب، فضلاً عن الكثير من كتب الاختيارات التي تضمنت موضوعات عدة لا تخلو في جزء منها من هذا الجانب.....

لقد تمثلت مطالع القصائد الجاهلية بالوقوف على أطلال الحبيب وبكائها فضلاً عن قصائد أخرى مثلت موضوع الحب والتغزل بالمحبوب في الكثير من أبياتها، كل ذلك كان دليلاً على وجود هذه العاطفة الانسانية منذ القدم كوجود النفس الإنسانية التي تحب وتعشق وترغب وتتعلق بمن يهواه القلب وتتمناه النفس.

كما شملت تلك القصائد التغزل بمفاتيح المحبوبة وبجسدها كمعلقة امرئ القيس و"هذا التعلق بجسد المرأة جعل الحب الجاهلي مقصوراً في الظاهر على الرجل، بمعنى أن الرجل حيث "يكي" على الأطلال، و"يتلى" حين يعتريه اليأس، و"يتذكر" و"ينحمس" و"يئن" و"يتعذب".

أما "المحبة" فلا نجد لها أثراً في حضارة الجاهلية مع أنها هي التي كانت تصرف الرجال في السبل التي يسلكونها، وتحملهم على المراكب التي يركبونها، والمخاطر التي يخوضونها، فعبلة وراء عنتره، وخولة وراء زهير، وفاطمة وراء امرئ القيس...

ولابد أن يكون لدى كل محبوبة من مزايا الروح والعقل والقلب ما يمكنها من بسط سلطانها الأدبي أو المعنوي على الذين يحيونها^(١)، وتذخر كتب الأدب والتاريخ بقصص الحب العظيمة التي انتهت بالموت أو الهلاك من أجل المحبوب وقصة عروة وعشقه لابنة عمه عفراء وموت كل منهما حزناً على الآخر خير مثال على ذلك، وفي هذا

(١) الحب عند العرب، المكتب العالمي للبحوث، منشورات دار مكتبة الحياة، د.ط، بيروت، لبنان، د.ت:

الصدد يذكر ابن حزم أسماء العديد من الأحبة في أول باب من أبواب كتابه^(١)، وغير ذلك كثير.

إذن الحب في العصر الجاهلي "إنما كان ينبعث ويتحرك في النفس، من تأثر الحواس بجسد المرأة واشعاعاته، وقلما يتعدى هذا الطور أو يتجاوزه، في الظاهر من أمره. بيد أن المحبوبة في نظر من يحبها ليست هذا "الجسد" الذي يراه كل الناس، ولا هي مجرد أنثى كغيرها من الأناث، وإنما تتحول - بسحر الحب - إلى عائق آخر، يتميز بمعانٍ لا تعرفها الكائنات، إذ لا يراها المحب في سائر الكائنات"^(٢).

أما في العصر الإسلامي فلم تخلُ الحياة وكتب الأدب والشعر والنثر من موضوعة الحب^(٣)، غير أن ذلك جاء بشكل أقل وأكثر هدوءاً ورزانة، لما انطوى عليه المجتمع الإسلامي من متغيرات جعلت بعض الموضوعات أولى ببعض، فضلاً عن أن الدين الجديد قد هذب الكثير من النتائج وجعلها موضع رقابة وتحت ضوابط معينة، فتباينت تلك النصوص عن سابقتها أبان العصر الجاهلي، فاتجه الغزل في العصر الإسلامي على سبيل المثال إلى العفة والالتزام وأصبح بمنأى عن تناول مفاتن المرأة وعن الرغبات المكبوتة فضلاً عن عدم الجهر بطبيعة العلاقة التي تربط الرجل بالمرأة فهي علاقة مقدّسة تحدث عنها الأديب والشاعر الإسلامي ضمن أطر محددة بعيدة عن الحب المادي.

(١) ينظر: طوق الحمامة في الألف والألف، ابن حزم الأندلسي، تقديم: صلاح فضل، شرح وتعليق: د. آمال إبراهيم، إشراف: عبد العزيز نبوي، الدار المصرية اللبنانية، ٩٩٤-١٠٦٤، ط٢، القاهرة، ٢٠٢١م: ٢١.

(٢) الحب عند العرب: ٣٥.

(٣) للمزيد ينظر: الحب في صدر الإسلام: إقبال بركة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، القاهرة، ١٩٩٨م. والحب والغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة، د. شكري فيصل، مطبعة دمشق، ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م. وتاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٧، ١٩٦٣م..

..... خطاب المحبة في المتون التراثية

ولم يتوقف شعر الغزل في تلك الحقبة على الرغم من كل هذه المتغيرات فقصيدة بانث سعاد قالها الشاعر كعب بن زهير في حضرة الرسول ﷺ حينما جاء معتذراً يطلب عفوه بعد أن هدر دمه ومطلع القصيدة المشهورة يبدأ بمقدمة غزلية تتحدث عن موضوع الحب والعشق والوله والتغزل بسعاد ملهمة الشاعر على الرغم من الموقف الذي كان يمر به إلا أن الغزل لم يفارق قصيدته، وغير ذلك في الشعر الاسلامي وعند بعض شعراء الاسلام وإن كان ذلك ضمن حدود معينة لانشغال المجتمع الاسلامي آنذاك بنشر الاسلام والدعوة المحمدية.

وفضلاً عن ذلك كان هناك من الشعراء من عاصر ظهور الدين الاسلامي لكنهم لم يلتزموا بالكثير من تعاليمه، وعلى الرغم من إسلامهم ظل قلبهم متعلقاً بعادات الجاهلية كأبي محجن الثقفي وحيد بن ثور الهلالي^(١).

وغير ذلك فإن الحب في ذلك العصر كان روحياً، عفيفاً وخالياً مما يشينه أو يدنسه، ملتزماً بكل ما نهى عنه الإسلام. وفي هذا الصدد يتحدث الدكتور شوقي ضيف عن الحب آنذاك فيصفه بأنه: "حب حقيقي عاشه العرب في عصورهم الإسلامية الأولى، حب ليس فيه إثم، ولا جناح، ولا فسوق، ولا حرج، ولا خيانة، ولا عار، ولا خطيئة، ولا ريبة، إنما فيه الوفاء، والصفاء، والعفاف، والطهر، والنقاء. وفيه كان يحتفظ المحبون بكرامتهم مهما ألح عليهم الحب، وتحتفظ الفتاة بجلالها ووقارها مع رقة العواطف ورهافة المشاعر"^(٢).

(١) ينظر: ديوان حميد بن ثور الهلالي وفيه بائية أبي داود الإباضي، حميد بن ثور الهلالي، صنعة الأستاذ عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧١هـ-١٩٥١م: ٣٦٤، وينظر: شرح أدب الكاتب، أبو منصور موهوب الجواليقي (ت ٥٤٠هـ)، تقديم: مصطفى صادق الرافعي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٠هـ-١٩٣١م: ١/١٣٩.

(٢) الحب العذري عند العرب، د. شوقي ضيف، الدار المصرية - اللبنانية، ١٩٩٩: .

فكان للإسلام أثر في شعر الغزل ومعجمه وتراكيبه وبنيته المضمونية، وفي شيوع بعض المفاهيم التي رسخها كالعفة والحصانة والالتزام ببعض الحدود الاجتماعية والدينية عند التعامل مع المحبوبة، والوصف الروحي للمرأة متمثلاً بمعاني التقوى والورع والزهد بعيداً عن الوصف الجسدي^(١).

وكذلك عُرف حب الرجل للمرأة في العصر الأموي بصورته العفيفة، ودونت كتب التراث الكثير من ذلك^(٢)، إذ كان الغزل العذري من ضمن الأغراض الجديدة التي ظهرت في شعر ذلك العصر، وهو الغزل الذي يصدر عن عاطفة موزونة وحب بريء وهوى نقي، إذ نبغ لبعض القبائل كقبيلة بني عذرة مجموعة من الشعراء الشباب الذين عرفوا بالهوى العفيف، والموت في سبيل المحبوب، وارتبطت اسمائهم بأسماء محباتهم مثل جميل بثينة وكثير عزة وقيس ليلي، لذا سُمي هذا الغزل بالغزل العذري نسبة لقبيلتهم قبيلة بني عذرة البدوية. ومن الشعراء الذين عرفوا بشعر الغزل آنذاك العرجي^(٣).

حتى إذا ما دخلنا العصر العباسي فإذا بموضوع الحب يشغل حيزاً واضحاً في كتب الأدب والتراث، إذ دونت الكثير من كتب الاختيارات وغيرها نصوصاً عديدة من الأدب شعراً ونثراً وقصصاً، فنقلت لنا أخبار العشاق والمحبين في ذلك العصر، ففي

(١) للمزيد عن هذا الموضوع يمكن مراجعة البحث الموسوم بـ "أثر الإسلام في شعر الغزل العذري"، د. علي عودة صالح السواعير، ود. أحمد إبراهيم صالح العدوان، جامعة البلقاء، كلية السلط للعلوم الانسانية، قسم اللغة العربية وآدابها،

(٢) ينظر: تاريخ الأدب العربي، العصر الاسلامي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٧، ١٩٦٣م. والحب عند شعراء الشام في العصر الأموي الحب عند شعراء الشام في العصر الأموي، ياسر محمود الأقرع، دار الارشاد، دمشق، ٢٠٠٨م، نقد الغزل العذري في العصر الأموي قديماً وحديثاً دراسة تقويمية، د. عبده يحيى صالح الدباني، تحقيق: مؤيد صالح اليوزبيكي، جامعة الموصل، ٢٠٠٣م. وينظر الغزل في العصر الاموي، عفيف نايف حاطوم، دار صادر للطباعة والنشر، ١ يناير ٢٠٠٨م.

(٣) ينظر: العرجي وشعر الغزل في العصر الأموي، ولیم نقولا شقير، دار الآفاق الجديدة، ١ يناير ١٩٨٦م.

..... خطاب المحبة في المتون التراثية

بابه الثاني نقل كتاب تزيين الأسواق في أخبار العشاق أخبار عدد من عشاق الجوّاري وما صدر لهم من العجائب وأخبار كل من كثير عزة، وقيس وليلى، والمجنون وصاحبه ليلي، وعروة وصاحبه عفراء، وعبد الله بن عجلان وصاحبه هند، وذو الرمة وصاحبه مي، وومالك وصاحبه جنوب، وعبد الله بن علقمة وحبيته حبش، ونصيب وصاحبه زينب، وعتبة بن الحباب وصاحبه ريا، كما نقلت أخبار الصمة وصاحبه ريا وكعب وصاحبه ميلاء^(١).

وعلى صعيد المغرب العربي لا يخفى عن الذكر قصة أحد خلفاء الاندلس المعتمد بن عباد مع جاريته الرومية اعتماد^(٢)، وغيرهم كثير، كل ذلك سيتضح لنا عند المضي في الكتابين مدار البحث.

الحب بين المشرق والمغرب

نحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على مفهوم الحب في سياق منطقتين مختلفتين وسياق زمني معين، ونركز على طريقة التعبير في المجتمعات الإسلامية عن الحب عن طريق نمط خاص من المؤلفين انتهجوا هذا النهج وذلك من خلال نتاجين من نتاجاتهما، يتمثل الكتاب الأول بكتاب الزهرة للأمام والفقيه الديني والشاعر والأديب ابن داود الظاهري "ت٢٩٧هـ" عن المشرق، فيما يمثل الجانب المغربي الأمام الحافظ والفقيه الظاهري أكبر علماء الإسلام في الاندلس ابن حزم "ت٤٥٦هـ" الاندلسي الشاعر والأديب في كتابه المعروف "طوق الحمامة في الألفة والآلاف".

(١) ينظر: تزيين الأسواق في أخبار العشاق، داود الانطاكي، دار حمد ومحيو، بيروت، ١٩٧٢م: الباب الثاني.

(٢) ينظر: العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية،

ط١، ١٤٠٤-١٩٨٩م:

أولاً: كتاب الزهرة لابن داوود الأصبهاني الظاهري:

الزهرة لكتابه العالم والفقيه والأديب والشاعر أبي بكر محمد بن داود الاصبهاني الظاهري المتوفى "٢٩٧هـ"، وصفه الشاعر ابن الرومي بفقيه بغداد، كتابه الزهرة أحد كتب المشرق المهمة في الشعر والآداب المتنوعة والأصول والمسائل الفقهية. يقع في جزأين يتعلق الأول بموضوعه الحب وحالاته وأحواله، بينما يتمثل الثاني بفنون شعرية متنوعة.

يقول ابن داود عن الكتاب: "وهو كتاب سمّيته "الزهرة"، واستودعته مائة باب ضمنت كل باب مائة بيت"^(١).

تتفاوت أبواب الكتاب في مضمونها وفي عدد أوراقها، إذ لا يوجد هناك تنظيم معين أو عدد محدد فمن الأبواب ما يغطي عدداً كبيراً من الصفحات، بينما هناك أبواب أخرى مختزلة ومقتضبة. ويرجع الباحثون سبب ذلك إلى أنّ الكتاب قد تعرض كما تعرضت غيره من الكتب إلى الضياع والحرق عند سقوط بغداد، وبفضل الباحثين العرب والمحققين، وبفضل المستشرقين تم استعادة أجزاء كبيرة من الكتاب من مكتبات العالم كنسخة خزانة المكتبة الملكية تورينو التي أسهم في الحصول عليها المستشرق الايطالي الأستاذ رزيتانو الذي حضر بغداد لإلقاء بعض المحاضرات بدعوة من كلية الآداب جامعة بغداد فأسهمت تلك الاضافة بإغناء النسخة البغدادية بأبواب أخرى^(٢).

أما الغرض الرئيس لتأليف هذا الكتاب فهو ولع ابن داود بمحمد بن جامع الصيدلاني وميله له فلاجله ألف كتابه هذا. يقول: "وقد عزمت لما رأيت من غلبات

(١) مقدمة كتاب النصف الأول من الزهرة: ٤.

(٢) ينظر: الزهرة، أبو بكر محمد بن داود الاصبهاني، د. ابراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن - الزرقاء، ط ٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م: ٢٠.

..... خطاب المحبة في المتون التراثية

الاشتياق، ومن ميلك الى تعرف أحوال المشاق، أن أوجه إليك نديماً يشاهد بك أحوال المتقدمين، ويحضرك أخبار الغائبين، وينشط بنشاطك، ويمل بملالك، إن أدنيتة دنا، وإن أقصيته نأى... وهو كتاب سمّيته "كتاب الزهرة" واستودعته مئة باب، ضمّنته كل باب مئة بيت" (١).

أما موضوعات الكتاب فيشير إليها المؤلف في قوله "أذكر في خمسين باباً منها جهات الهوى وأحكامه وتصاريفه وأحواله. وأذكر في الخمسين الثانية أفانين الشعر الباقية. واقتصر في ذلك على قليل من كثير، وأقنع من كل فنّ باليسير، إذ كان ما نقصده أكثر من أن يتضمّنه كتاب، أو يُعبّر عن حقيقته خطاب" (٢) والملاحظ من قول ابن داود أن حيزاً كبيراً من الكتاب قد تضمّنته موضوعات الهوى وأحواله، في حين تضمّنت الخمسين الثانية مجموعة من الاشعار والمقطعات التي لا تخلو بدورها من موضوعات العشق والهوى إلى جانب موضوعات أخرى متنوعة في الدين والفقه والمسائل الأخرى وآرائه في كل ذلك.

يقول: "أبتدأ بذكر من عشق من المتقدمين حتى ارتقى الى ذكر بعض الانبياء - صلوات الله عليهم أجمعين، وذكر أنهم كانوا أتباع الهوى على حال، ولا يجوز أن يُضاف مثلها إليهم..." (٣)، وبعد هذا التعقيب الذي أشار فيه ابن داود لمن تقدم من الانبياء والصالحين ورأيه في ذلك، يحاول بعدها أن يفصل في الحديث عن أبواب الكتاب ومراتب الحب وما تأول إليه نفس المحب وهو يتدرج في تلك الحالات والاحوال تباعاً، يقول: "وقد جعلت الابواب المنسوبة إلى الغزل من هذا الكتاب أمثالاً، ورتبتها على ترتيب الوقوع حالاً فحالاً. فقدّمت وصف كون الهوى وأسبابه، وبسطت ذكرى الاحوال العارضة فيه، بعد استحكامه من الهجر والفراق، وما توجّه غلبات التشوق

(١) م، ن: ٤٠.

(٢) الزهرة: ٢٣.

(٣) م، ن: ٤١.

د. سؤدد جسام حمادي.....

والاشفاق. ثم ختمتها بذكر الوفاء بعد الوفاة، وبعد أن أتيتُ على ذكر الوفاء في الحياة. وأجريتُ ما بين أوّل الأبواب أوسطها، وما بين أوسطها وآخرها على المراتب باباً فباباً، لم أقدم مؤخراً، ولم أؤخر مُقدِّماً^(١). وسنفضّل الحديث عن موضوعات الكتاب وأبوابه في موضعٍ لاحق.

ثانياً: طوق الحمّامة في الإلف والألّف لابن حزم:

يعدُّ كتاب طوق الحمّامة للأديب الأندلسي ابن حزم "ت٤٥٦هـ" من أشهر كتب الأندلس في العصر الوسيط، تناول الكتاب في طياته عاطفة إنسانية سامية هي عاطفة الحب فغطاها من كل جوانبها، ويعد ابن حزم أحد الفقهاء الذين اعتنقوا المذهب الظاهري وهو من الفرق الكلامية الشهيرة، وقد انعكس ذلك على الكثير من أفكاره وآرائه في هذا الكتاب وغيره. ويتفق في هذا الأمر مع سابقه ابن داود الظاهري الأمام الأول للمذهب الظاهري، أما ابن حزم فإمامه الثاني^(٢).

والكتاب دراسة في الحبّ ورسالة من الرسائل التي كُلف بكتابتها ابن حزم من قبل أحد أصدقائه، يقول: "وكلفتنى -أعزك الله- أن أصنّف لك رسالة في صفة الحبّ ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه، وله عليّ سبيل الحقيقة، لا متزيّداً ولا مُفَنّناً، ولكن مُورداً لما يَحْضُرُني على وجهه، وبحسب وقوعه، حيث انتهى حفظي وسعة باعِي، فيما أذكره، فَبَدَرْتُ إلى مرغوبك، ولولا الإيجاب لك لما تَكَلَّفْتُه..."^(٣).

ويسترسل في الحديث عن سبب التّأليف وموقفه من موضوع الرسالة التي أفاض فيها بالحديث عن الحبّ وحالاته وأحواله وأوصافه وصفاته وأعراضه وتأثيره في النفس الإنسانية وتناول أسباب كل ذلك من جانب نفسي وتحليلي، فنقل لنا مجموعة

(١) م، ن: ٤٢.

(٢) ينظر: الفقيه الذي عالج الحب في رسالته "مقال"، أ. محمد أبو زهرة، مجلة العربي، ع ٥٧، أغسطس، ٢٦: ١٩٦٣.

(٣) طوق الحمّامة: ١٧.

..... خطاب المحبة في المتون التراثية

من قصص العشاق والمحبين وحكاياتهم ومواقفهم وآلامهم ومآثرهم وأخبارهم مما شهدته وسمعه فوثقه، وتضمنت تلك الرسالة أيضاً بعضاً من أشعاره، وأخبار أهل الأندلس وأحوالهم في نواحي الحياة وجوانبها المختلفة.

أما سبب تسميته بهذا الاسم فقد عزاه الدارسون لأكثر من تعليل، فبعضهم يرى أن اسم الكتاب يتعلق بالمثل العربي القائل "تقلدها تقلد طوق الحمامة" فالحب صفة لا تفارق المحب حتى يفارق الطوقُ الحمامة، في حين يربط آخرون الحمام بالحب والمحبين، ويرى أن الحمام عنوان للحب والتودد ومراعاة الأليف، وأنه اشتهر بصفاتٍ تناسب أحوال المحبين^(١).

يتكون الكتاب من ثلاثين باباً: عشرة أبواب منها تناولت أصول الحب وعلاماته، في حين كان اثنا عشر باباً في أغراضه المحمودة والمذمومة، أما الحيز الذي تناولته الآفات الداخلة على الحب فتمثلت في ستة أبواب كانت في العاذل والرقيب والواشي، وفي من هجر وسلى وبان، أما الختام فكان في بابين تضمننا قبح المعصية وفضل التعفف.

يقول: "وقسمتُ رسالتي هذه على ثلاثين باباً، منها في أصول الحب عشرة. فأولها باب "في ماهية الحب"، ثم باب في علامات الحب، ثم باب فيه ذكر من أحبَّ في النوم، ثم باب فيه ذكر من أحب بالوصف، ثم باب فيه ذكر من أحب من نظرة واحدة، ثم باب فيه ذكر من لا تصحُّ محبته إلا مع المطاولة، ثم باب التعريض بالقول، ثم باب الإشارة بالعين، ثم باب المراسلة، ثم باب السفير..."^(٢).

(١) ينظر: م، ن: ١١-١٢.

(٢) م، ن: ١٨-١٩.

د. سؤدد جسام حمادي.....

ثم يستمر في الحديث عن بقية أبواب الكتاب كأعراض الحب وصفاته والآفات الداخلة عليه، وأضداد ذلك، إلى أن يختم حديثه بذكر بابا الختام وهما باب الكلام في قبح المعصية، وباب في فضل التعفف^(١).

والكتاب في مجمله رسالة مستفيضة في الحب صدرت من أديب وفقه وشاعر وكان لها صدى واسع بين القراء والنقاد والدارسين في المشرق والمغرب.

(١) ينظر: م، ن: ١٩.

«المبحث الأول»

دراسة موضوعية

ضمن حركة التأليف الواسعة التي شهدها العصر العباسي والعصر الاندلسي في حقبة معينة من الزمن يتجاذب موضوع الحب الكتابين قيد الدراسة: كتاب الزهرة لابن داود الظاهري وكتاب طوق الحمامة لابن حزم الاندلسي وتنمو العلاقة بينهما وترتبط وفق ذلك الموضوع على الرغم من اختلاف الزمان والمكان، ويأتي كل ذلك لما يمثله موضوع الحب وما يستقطبه من اهتمام ومدى مواءمة كل ذلك مع تطلعات النفس الانسانية ورغباتها وأحلامها ورؤاها، فهي في النهاية تبحث عن متنفسٍ يخفف عنها ضغوط الحياة وأعبائها ومتطلباتها، من هنا رصد كل من المؤلفين أهمية ذلك الموضوع لدى المتلقي واتخذوها ثيمةً للالتقاء والبحث والدراسة وعلى أساس ذلك أُختيرت أغلب موضوعات الكتابين ومادتهما.

ففي كتاب الزهرة وهو الكتاب الأسبق في التأليف، وعند تقديم أبواب الكتاب نجد أن ابن داود يفصّل الحديث في عنواناتها فيختار عنوانات طويلة تفصّل حالات الحب مثل "من مُنع من الوصول اقتصر على الرسول" وباب آخر بعنوان "من كثرت لحظاته دامت حسراته" وباب ثالث يحمل عنوان "ما خلّق الفراق إلا لتعذيب العشاق" وغير ذلك من الأبواب المماثلة كثير، يفصّل المؤلف في الغياب والوداع والاشتياق...

وتداعيات كل ذلك من خلال أبواب كثيرة، فيدخل في تفاصيل الحالة ويحلل ويستنتج، وكأن عنوان الباب اختصر كل تعقيب للمؤلف على النصوص المختارة، ويبدو أن ذلك كان سبباً مهماً من أسباب قلة تعليقه على النصوص المنتقاة.

فالعنوان لم يكن مجرد عتبة من عتبات النصوص ومضامينها؛ بل كان نتيجة لما سيؤول له حال المحب لو أصابته تلك الحالة وتمكنت منه، وهذا ما نلاحظه في عناوانات أخرى من الكتاب، من ذلك الباب المسمى "من راعه الفراق ملكه الاشتياق" وباب آخر يحمل عنوان "من تجلّد على النوى فقد تعرض للبلأ" وباب آخر "من غاب قرينه كثر حنينه" فتبقى الأبواب على هذا المنوال الهرمي لتصل لأبواب أخرى تعرض عناواناتها أسباب كل ذلك مثل باب "مسامرة الأوهام والأمانى سبب لتهام العجز والتواني" حتى تنتهي تلك الأبواب في الجزء الثاني للكتاب وهي أبواب لا تتحدث عن الحب بل عن أفانين الشعر الأخرى غير أنها لا تبتعد عن هذه الطريقة في العرض وتقديم المادة. وابن داود في أغلب مواضع الكتاب يصف حالات الحب ويحللها ويفصل في صورته وظروفه وأحواله^(١).

ومن جهة فنية أخرى نجد أنّ عناوانات الكتاب لا تخلو من التزييق اللفظي والبلاغي والموازنات الصوتية، إذ حرص ابن داود في كتابه على ذلك الأمر مثل باب "العقل عند الهوى أسير والشوق عليها أمير" وباب "ليس بلييب من لم يصف ما به لطيب"، وثالث آخر "سوء الظن من شدة الضن"، ومثل ذلك كثير.

من جانبٍ آخر نلاحظ أنّ عناوانات أبواب كتاب "طوق الحمامة" لابن حزم تختلف عن ما قدّمه ابن داود وطريقته في عرض المادة فهي أبواب تحتاج للتفسير والتحليل واغنائها بالنصوص التي توضّح عنوان الباب وتفسره وتكشف تفاصيله للعيان، فالنصوص التي أدرجت داخل كل باب هي نصوص مكملّة للعنوان ولا يمكن من خلال قراءة عنوان الباب الامام بكل حالة من حالات الحب وتداعياته التي ذُكرت في أول الباب بوصفها عتبة له دون أن يحتاج القارئ لطلب الاستزادة للوصول الى النتائج بعد العرض.

(١) ينظر: الزهرة: ١٤٦، ١٨١، ١٨٩.

فالباب الاول "ماهية الحب" يستدرج عقل القارئ للبحث عن تلك الماهية! ثم يتبعه المؤلف بعنوان آخر في بابه الثاني "علامات الحب" الذي يتطلب منه الاسترسال في ذكر هذه العلامات والتمثيل لها، وكذلك الحال في بقية عناوات الابواب مثل الابواب التي تتحدث عن حالات الحب، ومن هم أصحابها فالباب الثالث كان في ذكر من أحب في النوم.

أما الرابع فيتعلق بمن أحب بالوصف، وكذلك الحال في كل من الباب الخامس والسادس والسابع إذ اختصت بمن أحب من نظرة واحدة، ومن لا يجب إلا مع المطاولة، ومن أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها. وفضلاً عن ذلك فهناك أبواب مختصة قد تكون مبهمة لا يغني العنوان مضمونها مثل "باب الاذاعة"، و"باب الطاعة"، و"باب المخالفة"، فهذه العناوانات تثير ذهن القارئ للبحث عن ماهيتها لأن المقصود منها غير واضح من دون الولوج في مضمون كل باب بغية فهم المراد. فعلى الرغم من تلاقي الكتابين في موضوع مشترك، غير انها يختلفان في طريقة العرض ومنهجية الكتاب.

وعند الخوض في مادة الكتاب نلاحظ ان لابن داود نظرات نقدية للشعر، يقول: "وهذا الكلام أيضاً حسن الظاهر قبيح الباطن"^(١) أو قد يعلق على معانيه أحياناً بالقبح أو الخطأ^(٢)، وفي باب "من وفي له الحبيب هان عليه الرقيب" يقول في معرض تعليقه على شعر لا يسنده لشاعر: "صاحب هذا الشعر البائس مغتر بالزمان، جاهل بصروف الأيام"^(٣).

(١) الزهرة: ١/ ٦٦.

(٢) م، ن: ١/ ٦٥.

(٣) م، ن: ١/ ١٤٩.

وفي مواضع أخرى يبدي آرائه في قضية معينة أو يستشهد بأي الذكر الحكيم لتأكيد ما يذهب إليه في موضوع الحب فقد يرى أن الحقد لا يمكن أن يجتمع مع الحب فذلك محال بين المتحايين بين باب الجدل والهزل جميعاً^(١)، كما عرضت لنا مثل هذه النصوص صوراً من طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة فقدمتها تحت مفهوم الحب فأغلب هذه النصوص تركز على ذلك. وهذه النصوص تمثل بشكل أو بآخر ذائقة المتلقي العربي وتشغل حضوراً في وعيه وخطابه العام، خرج من الشكل النمطي.

وعلى الرغم من أن عرض ابن حزم لموضوعه أكثر فلسفة إلا أن كتاب ابن داود لا يخلو من رؤية فلسفية وإن كانت بنسبة أقل سواء في عنوانات الفصول أم مادته، نشهد ذلك مثلاً في الباب الذي يطلق عليه اسم "بعد القلوب على قرب المزار أشد من بعد الديار من الديار"، ثم يبدأ بعرض رؤيته فيقسم "الهجر على أربعة أضرب: هجر ملال، وهجر دلال، وهجر مكافأة على الذنوب، وهجر يوجبهُ المتمكن في القلوب"^(٢).

وفي كتاب طوق الحمامة تعكس بعض نصوص ابن حزم صورة للمرأة الأندلسية ومكانتها في المجتمع الأندلسي وطبيعة علاقتها بالآخر - الرجل - ومدى تأثيرها بالحضارة العربية التي ازدهرت حتى بلغت أوج عظمتها آنذاك، وكان لها أثر في نتاجات ابن حزم ونصوصه وحتى في تجربته الحياتية وعلاقته بها، فنقل لنا في الطوق أخباره معها والكثير من الحكايات والقصص في المجتمع الأندلسي، فضلاً عن حياتها الخاصة وجمالها وثقافتها ومناظراتها وتحديها للرجل، فنقل ابن حزم أثر كل ذلك في المجتمع، ومن خلال ما قدمه نطل على طبيعة الحياة الاجتماعية في ذلك العصر.

(١) م، ن: ٨٠ / ١.

(٢) ينظر: الزهرة: ٢٠٣.

..... خطاب المحبة في المتون التراثية

ومن جانب آخر لم يخلُ كتاب ابن حزم من التلاعب اللفظي وأفانين اللغة في سردياته واطهار براعته في استخدام الالفاظ وتوليدها من الجذر الواحد، فضلاً عن أفانين أخرى^(١).

(١) ينظر: طوق الحمامة: ٦٩.

«المبحث الثاني»

دراسة ثقافية

تتمثل قيمة النصوص التي تضمنها الكتابين في أنها تكشف عن تفاصيل الحياة الاجتماعية وطبيعتها آنذاك، ويأتي ذلك عن طريق الصور المترشحة من تلك النصوص، إذ شغلت مكاناً واسعاً وموقعاً واضحاً في التاريخ المدون فضلاً عن كونها مختارات قدمت لنا الواقع الاجتماعي وفق مراحل متباينة، فنظرة المجتمع وآرائه وحتى مسلماته انعكست في تلك النصوص ومن خلالها.

ومن هنا تكمن مكانتها عبر تاريخ انشغلت فيه الدراسات فيما بعد بالبحث عن نتائج مماثلة، أو تقديم ما يضاهيها في العمق والمضمون والاهتمام لما لها من أثر فكري في طبقات المجتمع، فضلاً عما يمثله موضوع الحب في تلك النصوص المختارة، وفي هذه الكتب المؤلفة.

لذا فإن البحث هنا سينصب على ذلك، وما تضمنه خطاب المحبة، ومدى تأثير بعض المرجعيات المهيمنة في المجتمع على ذلك الخطاب، كالمرجعية الدينية والمرجعية الاخلاقية وحتى المرجعية السياسية، وما لهذه المرجعيات من أثر قد يفرض على الافراد، وهل كان لتلك المرجعيات صوت معارض أم حدود معينة فيما يخص غيرهم وسلوكياتهم، فضلاً عن البحث عن انعكاسات النفس الانسانية والذات الشاعرة على نظرهم لهذا الموضوع، وأثر ذلك في توجيه آرائهم أو تحديدها، ومدى تقاطع كل ذلك مع مكانتهم السياسية أو الدينية، فهل انتجت تلك النصوص سياقات مخالفة لمثل هذه المنظومات؟، وهل اتخذ كل ذلك طابعاً متناغماً أم متناقضاً؟.

ومهما حدث فإنَّ هذه النصوص قد عكست شكلاً من أشكال الوجود وسيرورة الحياة، وهي بالتالي فرضت نفسها ودخلت حيز المؤلفات الأدبية سواء اختلف الزمان بين الماضي والحاضر أم المكان بين المشرق والمغرب أم بين الحواضر العربية كالحاضرة العباسية والحاضرة الاندلسية، وهي في النهاية مكملة لدورة الحياة وضرورة فيها، شاءت تلك المنظومات أم أبت.

سلطت الدراسة الضوء على صورة الفقيه الديني بوصفه انساناً يمتلك من المشاعر والاحاسيس ما يمتلكه أي شخص وله حقه الطبيعي في الحياة والوجود، وفي هذا الصدد نذكر من المتقدمين عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود "٩٨هـ" الذي يعد من وجوه الفقهاء وكبار رواة الحديث والمستقدمين في الفقه والنسك والعبادة، وقد عُرف بالوله والحب وله أشعار في ذكر زوجته عثمة بعد ندمه على طلاقها حتى قضى عليه ذلك الحب، ومثله في الورع والنسك والعبادة عبد الرحمن الجشعمي الذي عاش في العصر الاموي وشُغف بحب إحدى المغنيات وهي سلامة. وغيرهم كثير.

يقول طه حسين: "إن تناول الأدباء والفقهاء والأئمة لأُمور الحب كان أكثر انفتاحاً مما نحن فيه. ولولاه ما استمتعنا بنونية ابن زيدون، أعظم ما خطَّ الاندلسيون في شعر الحب، وأشعار أبي العتاهية في محبته، وهو شاعر الخليفة العباسي هارون الرشيد، وغيرها من الدلالات الواضحة على تمتع المجتمع الاسلامي القديم بقدر كبير من الحرية والانفتاح لممارسة غرائزه الطبيعية، وأسماها وأعلاها منزلة؛ كان الحب الذي احترفه العرب"^(١).

لكن كيف طرح رجال الدين وفقهاؤه آراءهم في مثل هذا الموضوع؟ وهل عكست نصوصهم المؤلفات أو المتتعة تلك الآراء؟، وماهي التعقيبات والتعليقات التي أدلى بها الفقيه الديني وهو يقدم كل ذلك؟! ومن ثمَّ هل عكست آراؤه موقفاً مؤيداً أم

(١) موقع حفريات نت: طه حسين.

..... خطاب المحبة في المتون التراثية

محايداً أم معارضاً؟، وبعد فما هو المسكوت عنه؟. وهل يمتلك المساحة الكافية للافصاح عن ذلك وهو يشكل جزءاً من منظومات عدة، فهل تسمح مكانته هذه بذلك كما تسمح لغيره من الافراد، هل تستطيع هذه الشخصيات التحرك بمأمن عن منظوماتها التي تنتمي لها كالسلطة الدينية والسلطة الاجتماعية. هذا ما سنحاول تتبعه ونحن نستقرأ كتابي الزهرة لابن داود الظاهري وطوق الحمامة لابن حزم الاندلسي.

في كتاب الزهرة نجد أن غالبية النصوص المتناقاة كانت صورة نمطية للحب تتباعد عن الخوض خارج المنظومة أو المرجعية الخاصة بالمؤلف والمرتبطة بمفاهيم كامنة في ذهن المجتمع وفي منظومته الفكرية، ولهذه المفاهيم أثر واضح في انتقاء نصوص الحب، أو الكتابة عنها وعنه. ففي باب "ليس بليب من لم يصف ما به لطيب" يورد ابن داود مجموعة من النصوص التي تنطوي تحت هذا الموضوع، ويفسر بعض الابيات حول لقاء الحبيب وما يحدث في القلب من أحوال لم تكن ظاهرة، فاللقاء هو الذي يمنع من الشكوى مما يجد المحب ويسترسل في ذكر أبيات لذي الرمة تتمثل بطي الشوق وأخرى لحبيب بن أوس الطائي حول الزهد في الهوى^(١).

ويستشهد بأبيات أخرى مماثلة إلى أن يصل إلى تحديد موقفه من كل ذلك، فيقول: "على أنه من طلب لأدمي مثله بما لم يطالب الله عباده فأخلق بأن يكون ظالماً. وقد مدح الله - تبارك وتعالى - قوماً فقال ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ ﴿الأنفال: ٢﴾، فلم يعيهم - تعالى - بأن كان ذكره بحضرتهم مُظهراً عليهم ما لم يُمكن قبل موجوداً منهم"^(٢)، ومثل تلك النصوص والتعليقات تعكس لنا ورع ابن داود على الرغم من كل ما استشهد به من نصوص الحب في هذا الكتاب وحالاته وما وصف به، إلا أن الوازع الديني لم يكن بمنأى عنه وهو يناقش ويحلل هذه الاستشهادات.

(١) ينظر: الزهرة: ٨٣.

(٢) م، ن: ٨٣.

وكثير من مواضع الكتاب نجد للمؤلف تعليقات تعكس ذلك كأن يقول:
"فحينئذ يظنُّ المحبُّ ما لا يخشاه ويتمنى ما لا يهواه ويفسد عليه أمر دينه ودنياه"^(١)
فالارتباط بالدين واضح في لغة المؤلف، وفي تعقيباته، وتحليلاته وكثيراً ما يرجئ الكثير
من حالات الحب ليربطها بموقف الدين منها. وفي موضع آخر يورد أبياتاً لأبي تمام
الطائي تقول:

أعوام وصلٍ كان ينسي طولها	ذكر النوى فكأنها أيام
ثم أنبرت أيام هجر أردفت	بجوى أسى فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنين وأهلها	وكأنهم وكأنها أحلام ^(٢)

فيعلق على تلك الأبيات بقوله: "وعلى أنه لا ينبغي للعاقل أن يُفرط في الجزع من
غير الأيام، فإنَّ الدهر حال بعد حال. وكما كان اتصال السرور ذريعة لوقوع المحذور،
فكذلك ربما وقوع المكروه من أقوى الأسباب لرجوع المحاب"^(٣)، إذ نلاحظ أن ابن
داود قد اعتبر اتصال السرور الذي يحدث بإطالة الوصل سبباً قد يؤدي لوقوع
المحذور، وأن وقوع ما تكرهه النفس ربما يكون سبباً في الرجوع عن ما تؤثره النفس
وتفضله وتقدمه على ما هو محرم ومحذور منه، ويشفع رأيه هذا بأبيات أخرى لا يسندها
لشاعر معين تقول:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت وبيتلي الله بعض القوم بالنعم

إذ يجعل الشاعر وقوع البلاء من النعم على الرغم من عظمتها، وبالمقابل قد تكون
بعض النعم من الابتلاء، وهذه المفارقة يستشهد بها ابن داود ليؤكد رأيه. ويقول:

(١) م، ن: ١٤٢.

(٢) ديوان أبي تمام: ٣/ ١٥١.

(٣) الزهرة: ١٧٠.

..... خطاب المحبة في المتون التراثية

"وصف الخلائق والأفعال أسهل من وصف الخلقة بالجمال"^(١) ومثل ذلك هذه التعليقات عكست المنظومة الاخلاقية التي تتحكم بالكاتب. يقول: "ومن الناس من تضعف قواه على هذه الحال، فلا يسأل عما يصير اليه من النكال. وكل ذلك على حسب التوفيق والخذلان، نسأل الله خير عواقب الامور، ونستكفيه كل مهم ومحذور"^(٢).

إذن في كثير من النصوص التي طرحها ابن داود في كتابه الزهرة نجد صوت المؤلف متوارياً خلف النصوص المنتقاة تخفي الكثير من آرائه المسكوت عنها لكن انتقاءه لتلك النصوص قد يعكس بشكل أو بآخر جزءاً من آرائه، فتبلور او تشكل وعيه الخاص.

فالمؤلف يترك للقارئ تشكيل آرائه أو مفاهيمه عن تلك الحالة التي طرحها النص، ومن جانب آخر يبدو أن هنالك معايير اخلاقية سيطرت على طبيعة النصوص المؤلفة، والاخرى المنتقاة وعكست تلك المعايير انتهاء المؤلف للمنظومة الاجتماعية والاخلاقية التي فرضت سيطرتها عليه فغيبت الكثير من النصوص عن مشهد الكتاب تماشياً مع سلطة الانتقاء لما يلائم مكانتها، ولا يشكل تناقضاً لصورتها في المكانة أو المجتمع أو خطراً عليها؛ فغالبية النصوص المنتقاة كونت صورة نمطية للحب تتعد عن الخوض خارج المنظومة أو المرجعية الخاصة بالمؤلف والمرتبطة بمفاهيم كامنة في ذهن المجتمع ولهذه المفاهيم أثر في انتقاء نصوص الحب هذه من غيرها والكتابة عنها أو عنه؛ لذا نجد أن الكتاب يخلو من النصوص التي تنافي الذوق العام أو تخدش الحياء، وذلك يعود لمرجعية المؤلف، فالنصوص مررت من خلال مؤلف ينتمي للمنظومة الدينية المتمثلة بعالم وفقه ديني وشخصية ذي مكانة مهمة في المجتمع كما أسلفنا. وكل ذلك يكون بناءً اجتماعياً تستدعيه خطابات النصوص المنتقاة أو المؤلفة من قبل المؤلفين.

(١) م، ن: ١٣٦/١.

(٢) م، ن: ٢١٧/١.

وعلى الرغم من أن بعض النصوص تؤثر إبراز ميل الذات لما يخالف المرجعيات المؤثرة في الفرد والمجتمع كالمرجعية الاخلاقية والمرجعية الدينية الا ان ذلك يتم تمريره في الأعم الأغلب من خلال تلك المنظومات في الكثير من كتب التراث الاسلامي متمثلة بعلماء الدين وضمن حدود معينة^(١).

والخطاب في بعض المتون التراثية الماثلة لم تستطع النأي تماماً عن مثل تلك النصوص مجارة للطابع العام والذوق السائد ولو بنسبة معينة، بوصف تلك النصوص مثلت جزءاً من صورة الحياة آنذاك وطبيعتها، وشغلت حيزاً في مؤلفات أدبية لم تنأى عن الأدب المكشوف من قريب أو بعيد. وفي الكتاب الثاني قيد الدراسة وهو كتاب طوق الحمامة لابن حزم كلمات تنافي الذوق العام وقد أشارت إلى ذلك الدكتورة آمال ابراهيم في معرض تقديمها للكتاب، إذ تقول: "ومما ينبغي الإشارة إليه أن الطوق قد احتوى على كلمات قليلة جداً تتنافى مع الذوق العام، ولا تليق قراءتها على الناشئة؛ لذا فضلنا حذفها، وبخاصة وأن الحذف لن يضرّ بالكتاب أو يخلّ بمعانيه، ثم وضعنا مكانها نقاطاً حتى نحفظ للعمل بالدقة والأمانة"^(٢)

يقول ابن حزم في أحد النصوص: "دخل الغَلَط على من يزعم أنه يُحِبُّ اثنين، ويعشق شخصين متغايرين، فإنما هذا من جهة الشهوة، وهي على المجاز تسمى محبةً لا على التحقيق، وأما نفس المحب فما في الميل به فضل يصرفه من أسباب دينه ودنياه، فكيف بالاشتغال بحبٍّ ثانٍ"^(٣).

ومن ذلك ينقل بعض الأخبار التي تتعلق بموضوع عشق الغلمان الذي كان منتشرًا في المجتمع الأندلسي وهذا ما كان يستهجنه ابن حزم سواء بطريقة مباشرة عن

(١) ينظر: على سبيل المثال الوشاح في فوائد النكاح، العالم الحافظ (ت ٩١١هـ) جلال الدين السيوطي، تحقيق وتعليق: طلعت حسن عبد القوي، دار الكتاب العربي، دمشق، د.ت.

(٢) طوق الحمامة: ١٢.

(٣) م،ن.

طريق التصريح والاستشهاد بأي الذكر الحكيم أم عن طريق التلميح^(١)، فابن حزم يحاول في كثير من النصوص إخفاء تفاصيل ما يتحدث عنه فيبتعد ويقترب مما هو محظور فيتوارى خلف بعض الفنون البلاغية ليعرض ما يريد الإفصاح عنه ولكن بأساليب أخرى كالتلميح والكناية والاياء والرمز.

فقد "استخدم ابن حزم أسلوب الرمز ليدكر الناس بأحكام الشريعة الاسلامية، فألبس العظة لباس الرمز وترك القارئ يتفكر فيها ويتوصل إليها، بعد جهد وإعمال للفكر"^(٢)، إذ كان حريصاً على الحفاظ على مكانته في المجتمع، ولكن في الوقت نفسه كان حريصاً كل الحرص ليحمي مجتمعه مما قد يصيبه من آفات؛ لذا "لجأ ابن حزم للرمز والايحاء في الحديث عن بعض الآفات التي ابتلي بها المجتمع الاندلسي في ذلك الوقت، ولأنه مقتنع بأنها آفات تظهر في كل مجتمع وعلى مر العصور، فابن حزم لم يقل بأن الحب حرام أو مكروه، وهذا أمر جلي، لكنه ينفر ويحذر من الفعل الحرام الذي قد يقع بحجة الحب، وهذا موجود في ثنايا الكتاب ولكن بأسلوب رمزي بعيد عن التقريرية"^(٣)، وهو بذلك قد "قدم نقداً اجتماعياً في ثنايا الكتاب"^(٤).

أسهمت المنظومة الاخلاقية وفق معايير اجتماعية بفرض سيطرتها على الكثير من هذه المؤلفات، غير أن المؤلف بانتماؤه الدينية والسياسية غيَّب الكثير من النصوص عن مشهد القراءة وفق سلطة الانتقاء التي يمتلكها، لكنه في النهاية لم يستطع تغييرها تماماً كما فعل ابن داود في كتابه الزهرة لاسيما في جزئه الأول الذي نحن بصدد معالجته انطلاقاً من انتماؤه لموضوع البحث وهو خطاب الحب، فقد صرح ابن حزم بحب أحد

(١) ينظر: م، ن: ٧١.

(٢) شعرية النشر في طوق الحمامة "ماجستير"، دانا عبد اللطيف سليم حمودة، إشراف: د. محمد خليل الخلايلة، جامعة الشرق الاوسط، كلية الآداب والعلوم، ٢٠١١-٢٠١٢ م: ٧٠.

(٣) م، ن: ٧٢

(٤) م، ن: ٧١.

الرجال لغلام كما في حديثه عن مقدم بن الأصفر إذ يقول: "كان مقدم بن الأصفر مريضاً أيام حدائته بعشق عجيب فتى الوزير أبي عمرو المذكور، وكان يترك الصلاة في مسجد مسرور وبها كان سكناه ويقصد في الليل والنهار إلى هذا المسجد بسبب عجيب حتى أخذه الحرس غير ما مرة في الليل في حين انصرافه عن صلاة العشاء الآخرة، وكان يقعد وينظر منه إلى أن كان الفتى يغضب ويضجر ويقوم إليه فيوجعه ضرباً ويلطم خديه وعينه فيسر بذلك ويقول هذا والله أقصى أمنيته (...) وأشنع من هذا"^(١).

مع وجود التصريح في الخبر الذي يرويه فهو ينتقل سريعاً إلى خبر آخر يصفه أنه أشنع مما سبق فيورد حكاية رجلٍ يعشق جاريته وعندما يعتقها ليتزوجها تغدر به وترفض الزواج منه، فيخطبها في المجلس نفسه أخوه وهو رجل دين ويرأس جماعة فإذا بها تقبل، وهذا الفعل يراه ابن حزم لا اخلاقياً إلى الحد الذي يجعله يمهد انتقاله من خبر عشق الغلام إلى هذا الخبر بقوله (وأشنع من هذا).

يتغلل ابن حزم في ذات النفس الانسانية فيعلل أسباب حبها لحبيب دون غيره، ويربط كل تداعيات ذلك بأنه شيء في ذات النفس، ثم يسترسل بالحديث ويستشهد بأشعار من نظمه، يقول: "ولو كان علّة الحبّ حسن الصورة الجسدية لوجبَ ألا يُستحسنَ الأنقصُ من الصورة، ونحن نجد كثيراً ممن يؤثّر الأدنى ويعلمُ فضلَ غيره، ولا يجد محيداً لقلبه عنه. ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحبّ المرءُ من لا يساعده ولا يوافقه. فعلمنا أنه شيءٌ في ذات النفس"^(٢).

فيعطي تبريراً لهوى النفس ورغباتها، فهو في معرض تقديمه للكتاب يتحدث عن سبب تأليفه له ويرى أنه لولا تكليفه بذلك من قبل أحد الأصدقاء لما خاض في هذا الغرض الذي يعدّه من الغلو والإسراف في تضييع العمر في تأليف مثل هذا العمل بدل توجيه كل جهده ما ينوله حسن الخاتمة، يقول: "كلفتني -أعزك الله - أن أصنف لك

(١) طوق الحماة: ٤١.

(٢) طوق الحماة: ٢٣.

..... خطاب المحبة في المتون التراثية

رسالة في صفة الحبِّ ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه... ولولا الإيجاب لك لما تكَلَّفْتُهُ، فهذا من اللغو، والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألاَّ نصرفها إلا فيما نرجو به رَحَبَ المُنْقَلَب، وحُسْنُ المآبِ غدا" ثم يعود ليبرر الخوض في مثل هكذا أمر فيقدم رأيه مستنداً الى أحد القضاة بإسناد يرجع الى أبي الدرداء، يقول: "أَجَّوْا النفوس بشيء من الباطل ليكون عوناً لها على الحق".

وينقل من أقوال الصالحين من السلف "من لم يُحَسِّنْ يَتَقَرَّى" أي يتخذ سبيل الفتوة وهو الشباب، وينقل من الأثر أيضاً: "أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد"^(١) لينتهي بعد هذا العرض إلى أن الحب ليس مرفوضاً في الدين ولا منكرراً على الخلفاء والأئمة، لكن له محددات يجب مراعاتها تجم النفس عما يؤذيها ويدنسها ويغضب الله منها، يقول: "وليس بمُنْكَر في الديانة، ولا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عزَّ وجلَّ، وقد أَحَبَّ من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير؛ منهم بَأَنْدَلُسنا عبد الرحمن ابن معلوية لدعجاء، والحكم بن هشام، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفه بطُروب... ومثل هذا كثير ولولا حقوقهم على المسلمين واجبة - وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم وإحياء الدين، وإنما هو شيء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم فلا ينبغي الإخبار به عنهم - لأوردتُ من أخبارهم في هذا الشأن غير قليل"^(٢)، فبعد أن استشهد بهم ليبرر بأنَّ الحبَّ غير منكر في الدين، يعود ليعطي أسباباً لتحفظه عن ذكر أخبار من أَحَبَّ وعشق من فقهاء الدين وائمه احتراماً لحقهم الطبيعي أولاً ولانتفاءاتهم لمنظومات معينة وحساسة ثانية.

وفي الوقت الذي يبرر فيه ابن حزم دوافع هذا الكتاب بخجل من موضوعه إلى حد يدفعه للتبرير، نجد الاصبهاني يشابهه بطريقة أخرى وهو يرى الحب في الكتاب وسيلة وليس غاية فيورد سبب تأليف كتابه وهو يمهد للجزء الثاني قائلاً: "وإنما قدمت

(١) ينظر: طوق الحمامة: ١٧.

(٢) ينظر: طوق الحمامة: ٢١-٢٢.

د. سؤدد جسام حمادي.....

أبواب الغزل منها ديناً ودنيا. و(مما) هو أدعى إلى مصالح النفس وأدخل في باب التقوى، لأن مذهب الشعراء أن تجعل التشبيب في صدر كلامها مقدمة لما تحاوله في خطابها"^(١).

ومهما بدا المؤلفان خجولان في تبرير تقديم كتابيهما فالمساحة المريحة التي تركاها لموضوع الحب تؤكد على أن الحب صورة من صور الوجود الانساني التي تشكل طبيعة الحياة، ويتمثل بالفرد بوصفه جزءاً من ذلك الوجود لا طارئاً عليه، وتحدث المفارقة دائماً عندما ترتعن مشاعر رجل الدين أو رجل السياسة وأحلامه بواقعه وتجربته مع المجتمع ومكانته فيه، فارتباطه معه قائم على مجموعة من المواضع والقيم قد تتعارض مع ذاته بوصفه يحمل قيماً روحية أخرى، وأمنيات وآمال وطموحات. وهذا الأمر قد يتمخض عنه اتجاهان عندما تفرض القيم المجتمعية نفسها فتسحبه إلى أرض واقعه، وتفرض عليه قيمه الروحية الأخرى واقعاً آخر واتجهاً معاكساً لينتهي به الأمر الى نوع من التوازن الروحي تعكسه نصوصه المختارة بعد أن كان مؤشر الاستجابة لديه متأرجحاً بين السلب والإيجاب بين ما يحققه من أهداف وبين ما يحافظ عليه.

(١) الزهرة: ٤٨٢.

نتائج البحث

- ❖ في الوقت الذي نجد فيه أن ابن داود وهو يبوب أجزاء كتابه يحاول أن يفسر ويحلل ويعطي صورة واضحة لمضمون الباب من خلال العنوان حتى يكاد أن يكون العنوان وافياً ومغنياً عن المضمون، نجد على الجانب الآخر أن ابن حزم يعطي لعنوانات أبوابه مفاهيم واضحة، مباشرة، عامة ومختصرة في الوقت نفسه
- ❖ أبواب الطوق هي أبواب خالصة في الحب في حين تضمن كتاب الزهرة في جزئه الثاني موضوعات أخرى غير الحب. إذ انقسم كتاب الزهرة لقسمين ففي الوقت الذي كان فيه الجزء الأول يتحدث عن الحب والمحبين وحالاتهم وأحوالهم، كان الجزء الثاني متنوعاً يضم قضايا أخرى في أفانين الشعر المختلفة، أما كتاب طوق الحمامة ففي مجمله مثل رسالة مستفيضة في الحب والألف والآلاف.
- ❖ وجاء كتاب طوق الحمامة بنصوص نثرية وقصص وأخبار تتحدث عن موضوع الكتاب في حين اكتفى ابن داود في كتابه الزهرة بأبيات شعرية
- ❖ صدر كلا الكتابين من فقيهين دينيين على الرغم من حساسية الموضوع بالنسبة لمثليهما عند العامة والخاصة، بينما لا يخلو كل منهما من تباين في طريقة الطرح أو المناقشة أو الآراء في القضايا التي طرحت
- ❖ كتاب ابن حزم أكثر اختصاراً قياساً بكتاب ابن داود السباق لتناول هذا الموضوع ويبدو أن سبب ذلك يعود لاختلاف الزمان والمكان بالنسبة لكلا المؤلفين، إذ القى هذان العاملان بظلالهما على المؤلفات من حيث المادة والموضوع والكم والنوع.
- ❖ يمثل الحب مرجعاً مهماً لإنتاج النصوص ويبرز ذلك أكثر من خلال التركيز على حالاته وأحواله وتداعياته، فهو صوت مهيمن يمثل سلطة على أصحابه ويوجّه طبيعة سلوكياتهم، على الرغم من ارتباط أصحابه بسلطات أخرى ومنظومات معينة كالمنظومة السياسية والمنظومة الاجتماعية.

- ❖ بينما كان كتاب الزهرة عبارة عن مجموعة من النصوص والشواهد عن الموضوع ومن ثم يعقب عليها المؤلف بالشرح والتفسير والتحليل وإن كان بشكل مقتضب، نجد أن ابن حزم يفصل في الطوق الحديث عن الحب ومن ثم يردف كل ذلك بالأخبار والقصص والحكايات المنقولة من واقع ما شهده وسمعه وشاهده الثقات من أهل زمانه، فضلاً عن مجموعة من أشعار المصنف نفسه وأخباره.
- ❖ الطوق رسالة في الحب والأدب والفلسفة والتأمل فهو أكثر محدودية وتركيزاً
- ❖ أما كتاب الزهرة فهو نتاج أدبي وشعري يشترك مع الطوق في موضوع واحد لكنه يفترق عنه في معالجته لموضوعات أخرى مما جعله أكثر سعة وغناءً وكلا الكتابين مثلاً دراسة لعدد من الظواهر التي انتشرت في المشرق العربي ومغربه. وابن حزم شخصيته واضحة في الكتاب إذ لم يكن كتابه من كتب الاختيارات ككتاب الزهرة الذي ضمَّ مجموعة كبيرة من النصوص انتقاها الكاتب وفق آلية معينة
- ❖ كتاب ابن حزم رسالة من مرسل إلى متلق يحمل هدفاً إنسانياً ومسحة فلسفية، فهو رسالة أدبية ذات نزعة تأملية، فلسفية، رسالة مستفيضة في كل ما يتعلق بالحب وأعراضه ومعانيه، نطل من خلاله على الحياة الاجتماعية للمؤلف نفسه، وحياة الناس الذين عاصروهم في المجتمع القرطبي.
- ❖ انطلاقاً من مرجعيات المؤلفين لم يخلُ الكتابين من الاستشهاد بأي الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف.
- ❖ يتفق المؤلفان بالابتعاد عن التقريرية المباشرة عند الحديث عن بعض الجوانب الحساسة في موضوعهما، ولكن يختلفان في أنَّ ابن داود الأكثر حذراً من الولوج في تفاصيل الموضوع وحديثاته، بل على القارئ أن يستنتج المراد دون حاجته إلى الترميز والايحاء والكناية فهو يترفع حتى عن ذلك الأمر بخلاف ابن حزم فعلى الرغم من تفقّحه ونسكه إلا أنه لا يتورع عن ذكر بعض القصص والالفاظ المرفوضة اجتماعياً لكنه كان أكثر موضوعية.

..... خطاب المحبة في المتون التراثية

❖ كان للمرأة وبلاغتها وثقافتها مكانة عند أهل الأندلس، إذ لم تشارك الرجل في الحب، فحسب، بل في الكثير من مجالس الشعر والغناء والبلاغة وحتى في السلطة، فكانت على درجة عالية من الحضور.

مصادر البحث ومراجعته

❖ القرآن الكريم

❖ الكتب

(١) تاريخ الأدب العربي، العصر الاسلامي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٧، ١٩٦٣م.

(٢) تزيين الأسواق في أخبار العشاق، داود الانطاكي، دار حمد ومحيو، بيروت، ١٩٧٢م.

(٣) تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي ت ٣٧٠هـ، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط ١، بيروت الطبعة، ٢٠٠١م.

(٤) الحب العذري عند العرب، د. شوقي ضيف، الدار المصرية - اللبنانية

(٥) الحب عند شعراء الشام في العصر الأموي، ياسر محمود الأقرع، دار الارشاد، دمشق، ٢٠٠٨م.

(٦) الحب عند العرب، المكتب العالمي للبحوث، منشورات دار مكتبة الحياة، د. ط، بيروت، لبنان، د. ت.

(٧) الحب في صدر الإسلام: إقبال بركة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٨م.

(٨) الحب والغزل بين الجاهلية والاسلام من امرئ القيس الى ابن أبي ربيعة، د. شكري فيصل، مطبعة دمشق، ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م.

(٩) ديوان حميد بن ثور الهلالي وفيه بائية أبي داود الإباضي، حميد بن ثور الهلالي، صنعة الأستاذ عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧١هـ - ١٩٥١م.

- ١٠) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الاصفهاني، تح أبو اليزيد أبو زيد العجمي، د.ط، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- ١١) شرح أدب الكاتب، أبو منصور موهوب الجوالقي (ت ٥٤٠هـ)، تقديم: مصطفى صادق الرافعي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م.
- ١٢) الزهرة، أبو بكر محمد بن داود الاصبهاني، د. ابراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن - الزرقاء، ط ٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م
- ١٣) طوق الحمامة في الألف والألف، ابن حزم الأندلسي، تقديم: صلاح فضل، شرح وتعليق: د. آمال ابراهيم، اشراف: عبد العزيز نبوي، الدار المصرية اللبنانية، ٩٩٤ - ١٠٦٤، ط ٢، القاهرة، ٢٠٢١م
- ١٤) العرجي وشعر الغزل في العصر الأموي، وليم نقولا شقير، دار الآفاق الجديدة، ١ يناير ١٩٨٦م.
- ١٥) العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٩م.
- ١٦) الغزل في العصر الاموي، عفيف نايف حاطوم، دار صادر للطباعة والنشر، ١ يناير ٢٠٠٨م.
- ١٧) فقه اللغة واسرار العربية، الأمام أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي، ضبط وتعليق وتقديم: د. ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط ٢، ٢٠٠٠م.
- ١٨) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق : عدنان درويش ومحمد المصري، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ - ١٩٨٨م.
- ١٩) لسان العرب، مادة حب، ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، ط ١، بيروت، دار صادر.
- ٢٠) المعجم الوسيط، ابراهيم مصطفى وآخرون، د.ط، دار الدعوة، د. ت.

..... خطاب المحبة في المتون التراثية

(٢١) منازل السائرين، عبد الله الأنصاري الهروي، د. ط، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

(٢٢) نهاية الأرب في فنون الأدب المؤلف: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (ت ٧٣٣هـ)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣ هـ.

(٢٣) نقد الغزل العذري في العصر الأموي قديماً وحديثاً دراسة تقويمية، د. عبده يحيى صالح الدباني، تحقيق: مؤيد صالح اليوزبكي، جامعة الموصل، ٢٠٠٣م.

(٢٤) الوشاح في فوائد النكاح، العالم الحافظ (ت ٩١١هـ) جلال الدين السيوطي، تحقيق وتعليق: طلعت حسن عبد القوي، دار الكتاب العربي، دمشق، د.ت.

الاطاريح والرسائل الجامعية:

(١) أثر الاسلام في شعر الغزل العذري، د.علي عودة صالح السواعير، ود.أحمد ابراهيم صالح العدوان، جامعة البلقاء، كلية السلط للعلوم الانسانية، قسم اللغة العربية وآدابها.

(٢) شعرية النثر في طوق الحمامة "ماجستير"، دانا عبد اللطيف سليم حمودة، إشراف: د. محمد خليل الخلايلة، جامعة الشرق الاوسط، كلية الآداب والعلوم، ٢٠١١-٢٠١٢م.

الدوريات :

(١) الفقيه الذي عالج الحب في رسالته "مقال"، أ. محمد أبو زهرة، مجلة العربي، ع ٥٧، اغسطس، ١٩٦٣: ٢٦.

..... د. سؤدد جسام حمادي

المواقع الالكترونية:

(١) موقع حفريات نت : طه حسين.

<https://hafryat.com/ar/%D8%B7%D9%87-%D8%AD%D8%B3%D9%8A%D9%86-0>